دار المشرق

المشرق الرقمية

مجلّة إلكترونيّة تصدر مرّتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثاني. حزيران ٢٠١٣

نور المصالحة في زمن العنف

الأب زياد هلال اليسوعي*

* بقعة نور في أحياء الرصاص

كانت البداية في حمص، في الأحياء الساخنة، عندما أخذت الأمور تتصاعد نحو العنف. كان لا بدّ من عمل شئ يساعد الأطفال على الخروج من الواقع المرير هذا. وكان السؤال هل يمكننا قلب الحدث من قلب الحدث؟ هذا السؤال جعلني أفكّر في عمل رسالة خاصّة بالطفل والأطفال في أحياءَ كان القنص والرصاص يعمل بها ليل نهار. لم يكن من السهل القيام بهذه المهمّة، خاصّةً أنّ العنف كان في تزايد مستمرّ يومًا بعد يوم، وفي بداية العام ٢٠١٢، أقفلت معظم المدارس أبوابها في مدينتنا، عدا تلك التي دُمّرت وحُرقت. أصبحت أماكن العمل مشاعلَ لكن لا للمعرفة بل للعنف، وأسفاه. هجر أغلب الأهلون المدينة، وأحياء بكاملها فُرغت من قاطنيها. الخوف أجبر الناس على ترك منازلهم وعملهم وحياتهم السابقة، للاتّجاه نحو المجهول هربًا من مصيرٍ مجهول يرصده لهم قنّاص مُتخفٍّ أو رصاصة طائشة أو ضربة مدفع لا تميّز بين صديقٍ أو عدوّ.

مع بداية شهر شباط من السنة المنصرفة، بدأت الفكرة تنضج لوجود حلّ يساعد الأهل على اللقاء ويقي الطفل شرّ الشارع والخطر المتربّص به. يومها نزلت الفكرة بعد سكرة ضجيج المدافع وأزيز الرصاص. لم يكن للأطفال ملجأ

* مدير مركز المخلّص التربويّ.

يومها سوى الشارع واللعب فيه، لكنّه لم يكن الحلّ الأمثل في ظروفٍ كهذه. فتراهم محاصرين بين خوف أهلهم من فقدانهم، وخوفهم من مجهول يُصيبُهم برصاصة. فقدت المدينة أكثر من طفل، والسبب أنّه نزل الشارع كي يرفّه عن ذاته، ويهرب من تحريض التلفاز ووسائل الإعلام. يتنصّل من أحاديث الكبار، أحاديث لا تعنيه، فهو لا يعرف معنى الشرّ أو ماهيّة الطائفيّة. كان همّه أن يخرج من محيطه المنطوي على ذاته نحو أفقٍ واسع يحلم به ليل نهار.

* أفكار تولّد واقع للمصالحة

لمعت فكرة جديدة في ضباب العنف، وأزهرت برعمَ الأمل من بين غبار القذائف المترامية هنا وهناك. مشروع يقي الطفل من ضالّتين: ضالّة الاقتتال المستمرّ، وضالّة ملل أحاديث الكبار. خرج يومها صوت العلم من حجره الأرضيّ، يبحث عن متلقّف له، يرسل إشاراتٍ إلى مثابرة بثّ العلم والمعرفة بين هذا الجيل في زمن اللاأمان. رافقت فكرة العمل والمعرفة فكرة أخرى هي تجميع أهالي الأطفال الذين بَقُوا في منازلهم، حول مشروع، لا يسعى إلى التفرقة بل إلى لمّ الشمل، في مدينة أخذت الضغينة الطائفيّة منه مرتعًا ومسرحًا، فنزلت المحبّة عن صهوة سموّها، وركب الشرّ سرج حصانها، ونبتت أشواكُ الفتنة في حديقة الورود المختلفة، تخنق كلّ ما كان جميلاً، وتسحق كلّ ما كان حيًّا من روح التعايش والألفة لسنين كثيرة.

يومها، بزغ نور من داخل ديرٍ صغير، جعلته الأحداثُ على خطوط التماس بين المتعاركين. يومها، تحوّل هذا المكان من مقامٍ دينيّ فقط إلى مقام إنسانيّ يستقبل الطفل مهما كان لونه أو دينه أو طائفته. لم يبقَ هذا المكان حكرًا على أحد. أصبح مأوى لكلّ طفل، وكلّ شابّ، وكلّ شخص يأمل أنّ الحياة ستستمرّ مهما كلّف الأمر. إنّه "دير المخلّص" الذي بناه الآباء اليسوعيّون في آواخر ستّينيّات القرن الماضي، مركزًا للتعليم الدينيّ المسيحيّ، ليُزاد عليه اليوم اسم "مركز المخلّص التربويّ" الذي شرّع أبوابه منذ بداية السنة الماضية، كي يستقبل أطفالًا وشبيبة تجمعهم فكرةُ المصالحة، وحبّ التغيير، من خلال قبول الآخر.

* عيش كريم ولقاء أخويّ

هدف آخر من أهداف المشروع كان تحفيز الشبّان والشابّات على البقاء في مدينتهم، وتوفير فرصة عمل لهم من خلال مشروعنا هذا. مع أنّ مشروعنا هو تطوّعيّ بكلّ ما فيه من الخدمات وممّا يحمل من سمة الرسالة، لكنّه أيضًا يساعد شبّان الحيّ وشابّاته بدعم أهلهم وأنفسهم في الحياة. فأغلب الوظائف الخاصّة كانت قد توقّفت، والكثير من الأعمال الحرّة تلاشت. ومنه تقلّصت فرص العمل، وبدأ البحث عن لقمة العيش ليس بالسهل للكثير من الناس. حاول مشروعنا، وبفضل الجهات والجمعيّات المانحة، أن يساعد أهل الحيّ من خلال شبيبته على توفير فرصة عملٍ لهم، وتوفير مكافأة شهريّة تساعدهم على العيش الكريم.

والسعي الأهمّ من خلال هذا العمل هو توفير مكان غير منحاز يساعد أهالي المنطقة على اللقاء، لا كي يتجادلوا، أو يتفاوضوا، بل كي يتلاقوا حول طفل هو مشروع مستقبل، هو أمل لحياة ستلوح في الأفق القريب، مهما طال الاقتتال. وممّا ساعد في هذا اللقاء أنّ مركزنا يجمع الأطفال من كلّ مشارب المجتمع والأديان والطوائف. ففي بداية الأحداث بحمص، تفرّق الناس بحسب مللهم، وبحسب انتماءاتهم. حاولنا من خلال هذا المشروع أن نساهم في إعادة الربط بين ما فرّقته رياحُ الاقتتال. كان يكفي أن تلتقي عيون بعض الأهالي من شرق المدينة، بعيون أهل غربها. يكفي أن يعرف كلّ طرف أنّ الآخر الذي لا يبعد سوى خطوات منه، هو شريك له في الوطن، وله أيضاً أطفال يتوقون للعيش الآمن. وبهذا تطوّرت فرص اللقاء من خلال ما ينظّمه المركز من حفلاتٍ للأطفال، تجمع أهاليهم، وتبذر في نفوسهم ثانيةً فكرة الألفة التي انتزعتها منهم نار الضغينة. فالتقى الأهلون حول أطفالهم الذي اعتلوا المسرح يمثّلون أدوار تعكس أهمّيّة العيش المشترك، أو يعزفون ويغنّون كلمات تحيك شال السلام المتشقّق من كثرة شدّه من كلّ طرف. فهل يمكننا القول إنّ تصرّفات الأطفال واشتراكهم بعضهم مع بعض، بالرغم من اختلافاتهم الدينيّة والطائفيّة، أثارت وتثير رجعة لضمير الناضجين والكبار علّهم يعودن إلى رشدهم الاجتماعيّ، وتحفّز العيش المشترك على كلّ أنواع الصراع؟ في الحقيقة جمع مركزنا الأهل

من المشارب كافّةً في موزاييك فريدٍ من نوعه عصر الصراع. ويمكننا القول إنّ ما فرّقته رياح عنف الكبار جمعته أنشطة الأطفال الصغار.

* أغصان تمتدّ إلى أغصان أخرى

بدأ مشروعنا بستّين طفل في مركزنا المخلّص، ليصل اليوم إلى ستّمائة طفل. بعدها بشهر واحد انطلقت ثلاثة مشاريع في مدينة حمص نفسها أيضًا، في ثلاثة مناطق مختلفة: حيّ الوعر غرب المدينة، قرية الدوير شمال حمص، ومنقطة الحمرا-القصير جنوب حمص. فزاد عدد الأطفال المستفيدين حتّى وصل إلى ألف طفل. واليوم أثمرت هذه الجهود البدء في بداية الصيف بافتتاح أحد عشر مركزًا في مدينة حمص والجوار (حيّ باب السباع، حيّ العدويّة، حيّ المحطّة، حيّ الأرمن، قرية فيروزة، ، قرية المشرفة، قرية مرمريتا وقرية الكفرون). والهدف الأساسيّ يقوم على تكوين الطفل على المصالحة والعيش المشترك. إضافةً إلى الدعم النفسيّ والاجتماعيّ للأطفال، خاصّةً المهجَّرين منهم، من الذين فقدوا بيوتهم ومدارسهم. تضمّ مراكزنا المختلفة اليوم أكثر من ألفَين وثلاثمائة طفل في حمص، وأكثر من مئتَين وخمسين متطوّعًا من الشُبّان والشابّات، إلى جانب تأمين الدعم الغذائيّ والطبّيّ والصحّيّ لأهالي الوافدين منهم، ودعمهم في السكن والمأوى. ونحن اليوم في صدد دعم أكثر من أربعة آلاف عائلة مستضافة أو متضرّرة من الأحداث.

* قيم الحياة وبناء الإنسان بكلّيّته

لم يكن من السهل تجميع الشُبّان والشابّات وتكوينهم على العمل التربويّ والإغاثيّ. كان يتوجّب الصبر والعمل المتتابع، ومواجهة التحدّيات. خضع الكثير منهم إلى دورات تكوينيّة في سوريا ولبنان على أيدي مختصّين. وبفضل مساهمة راهبات القلبَيْن الأقدسَين، شريكاتنا في الرسالة، استطعنا التوصُّل إلى عملٍ متناسق. وانتهجنا مبدأ تكوين الطفل على العيش المشترك وعلى محبّة الآخر المختلف عنه. وقد تبّنينا "مشروع اليونسكو" للطفولة وهو مشروع مؤسّس على "قيم الحياة" وهي مصاغة بعدّة مفاهيم ألا وهي: العيش المشترك، اللاعنف،

المحبّة، احترام الآخر والسلام ... الهدف هو إخراج الطفل من واقعه المرير، ومن الصراع الدائر، وتحضير بنية جديدة لأسس جديدة تساعد على بناء أخفّ عُنفًا في المستقبل، هو إخراج الطفل من منزله الخاصّ المتقوقع على نفسه إلى منزل الإنسانيّة، إلى الوطن الذي يحمل الجميع على كتفه ويرعاهم؛ إبعاد الطفل عن وسط أصبحت تعوم به شوائب التفرقة والضغينة إلى وسط أشدّ أمنًا وأمانًا، إلى مستقبل أقوى سلمًا واحترامًا.

كي يسمو الطفل عن كلّ هذا، كان لا بدّ من اعتماد أنشطة مختلفة تحبّبه في المركز من: رسم، مسرح، مسرح للعرائس، أشغال يدويّة، أفلام للصغار، موسيقى ورقص؛ أنشطة داعمة للطفل تساعده على الخروج من خوفه وأرقه وقلقه المستمرّ من رعب المكان وأزيز الرصاص. لم يكن بالسهل إقناع الطفل بالقيام بهذه الأنشطة والدراسة في الوقت عينه. لكن بعد فترة وجيزة، لاحظنا عشق الأطفال للقدوم إلى المراكز المختلفة، لا بل أظهروا أنّهم أحبّوا الدراسة في المركز أكثر من المدارس التي كانوا فيها، والسبب شعورهم بالأمان والحبّ من قبل المربّين والمربّيات. هذا كان الفارق، ومنه كانت بداية خطّ النجاح. وبالرغم من أنّ الأحداث تسارعت واضطررنا إلى إغلاق مركزَيْن بسبب العنف المتزايد في أماكن وجود مراكزنا، فقد افتتحنا مراكز أخرى في أماكن أخرى بحمص إلى جانب افتتاح مركزَيْن للمعوَّقين ذهنيًّا، وستّة مراكز للإغاثة الإنسانيّة بمشاركة أكثر من ثلاثمائة متطوّع ومتطوعّة.

* ما من طفل معوَّق في مجتمع المحبّة

لحظة بدأنا العمل مع المراكز، رأينا أهمّيّة فتح مركز للمعوَّقين عقليًّا بعد أن دُمّرت جميعُ المراكز التي كانت تُعنى بهم، والحفاظ على "الكادْر" التربويّ من الاختصاصيّين. وهكذا افتتحنا مركزنا الأوّل في "مركز المخلّص" عينه لثلاثين طفلًا ذوي الحاجات الخاصّة. وبعده بأشهر افتُتح المركز الثاني في حيّ الأرمن. وبفترة وجيزة، تمّ إعادة جميع الطاقم العامل واستقبال جميع الأطفال الذين لم يغادروا حمص. تطلّبت إعادةُ تأهيل الأطفال الكثيرَ من الجهد حتّى توصّلوا إلى إبعاد الخوف المتراكم من الأحداث، ومن ثمّ الدخول في المجال

التربويّ الاجتماعيّ الذي فقدوه سنةً كاملة. إنّ صِغَر المساحة في مركزنا جعلنا نستقبل في الوقت عينه الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصّة والتلاميذ. كان هذا العمل مساعدًا بشكلٍ كبير لكلّ الأطفال، فإنّ اختلاط الأطفال بعضهم مع بعض أضفى جوًّا خاصًّا ساعد الجميع على تخطّي بعض العقبات النفسيّة. كما ساعد في نضوج شخصيّة الأطفال من الطرفَيْن بشكلٍ كبير. فقد شعر الأطفال ذوو الاحتياجات الخاصّة بأنّهم مقبولون من الجميع خاصّةً في أوقات اللعب والأنشطة، وهذه تجربة فريدة من نوعها في محيطنا الشرقيّ. ففي الحقيقة لا يفهم الطفلَ إلّا طفلٌ آخر يختلف عنه لكنّه يشبهه في العمق.

في الختام،

ربّما لم نستطِع تحقيق المصالحة بين الكبار بعد، ولم نستقبل جميعَ أطفال آلاف العائلات النازحة والمهجرة في بلدنا. لكنّنا حاولنا فتح طاقة نور في جدار العنف والضغينة، تاركين نوره يُضيءُ على الآخرين علّهم يلحقون شروقه في أنفسهم. وهذا النور تجلّى من خلال تطوّر الأطفال ونضوجهم وتحدّيهم واقِعَهم الأليم، وأيضًا نضوج المربّين والمربّيات والمرافقين والمرافقات، فهم أيضًا نضجوا من خلال خبراتهم المتعدّدة مع الأطفال والواقع. لقد زرع فيهم الطفل بهجة الرجاء وأيقظَ في داخلهم حُبَّ الحياة والاستمرار. والعمل المتبادل هذا بين الطفل والناضجين جعل طريق العنف ينحرف نحو تقبّل الآخر والاعتناء به والاهتمام بمصيره. جعلهم يدركون أنّهم كلّما فعلوا " ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار فبي قد فعلتموه" **(متّى ٢٥:٤٠)**.